الحمد لله ذي العزَّة والقدرةِ والكمالِ والجلالِ ، ربي الذي ملأ الوجودَ أدلةً لِيلُوح ما أخفى بما أبداهُ ، أحمدهُ سبحانهُ ، وهو الذي ابتدأ الخلائقَ بالهبةِ والنَّـوالِ من قبل الضَّراعةِ واللَّجَـإِ والابتـهال ، وهو الجوادُ فلم يدعْ من مطلبٍ إلا وتمَّمه إلى أقصاهُ ، أشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شـريك لـهُ شهادةً تنحطُّ بها الأوزارُ والأثقالُ ويصلحُ بها الحالُ والمقالُ ، وأشهدُ أنَّ رحمتهُ للعـالمينَ مُحمَّـداً عبدهُ ورسولهُ المجَمَّـلُ بزكيِّ الخلالِ وحميد الخصـالِ صلى اللهُ وسلَّمَ وباركَ عليـه وعلـى آلـه وصحابته ومن سارَ على نهجهِ وسُنَّـتهِ واحتكمَ إلى هديهِ وشرعتهِ ولقي اللهَ على ملتـهِ ومحجتـه ، وبعد: فأوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله تعالى فلا فلاحَ إلا لمن تواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصبر.

عباد الله: لقد خُلقَ الإنسـانُ ضعيفاً ، ولن يقلِّبَ أحدُنا فكرهُ في أي ناحيةٍ من نواحي أحوالـهِ إلا ظهر لهُ من أمـاراتِ الضَّعفِ ما يفوقُ الحصرَ والعدد ، ومن أدلِّ علاماتِ الضعفِ في الإنـسـانِ أنَّهُ يتفوهُ بالكلمة ويفعلُ الفعلَ بقناعةٍ تامَّـةٍ ثُمَّ يعودُ فيندمُ ويلومُ نفسهُ ويتأسفُ وقد انحسفْ ، وما دامَ الأمرُ كذلك في حال المرءِ مع نفسهِ فإنَّ تعاملهُ مع النَّـاسِ أحوجُ إلى النَّظَـر إلى جميعهم أنَّهـم مُركَّـبونَ من هذا الضعفِ المُلازمِ الذي لا حيلة في دفعهِ ، وصدقَ اللهُ يوم قال (وَخُلِـقَ الْإِنْـسَانُ ضَعِيفًا) ومن هُنا جاءت تشريعاتُ هذا الدين الحنيفِ بما ينجبرُ بهِ ضعفُ الإنسـانِ ويتقوَّى ومـن جُملةِ ذلك الاعتذارُ بعد الخطـإِ لتطييبِ أنفسِ ذوي الحقوق وسلِّ السخائمِ والأحقـادِ كما قـال الشاعر: إنِّي نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ زَلَلِي *وَزَلَّةُ الْمَرْءِ يَمْحُوهَا تَنَدُّمُهُ، وفي حديث القـرآنِ عـن الاعتذار إشارةٌ وتذكيرُ ببعضِ الصالحينَ الذين حكى اللهُ علينا خبرهم ، ومنهم هارونُ الـنبي عليـه وعلى نبينا صلوات الله وسلامهُ حين عاتبهُ موسى على عدم إنكارهِ بالشدة علـى عبـدة العجـل واقتصاره على الإنكارِ بالقول إذ قَالَ لَهُمْ (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) فبادر هارونُ ببيانِ عذرهِ لموسى وقال (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائيلَ وَلَـمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) وبيَّـن لهُ ما حصلَ في مغيبهِ وأنَّهُ استفرغَ وسعهُ في إنكار الشركِ حتى كادَ يُقتل فقال (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي) فطابت نفسُ موسى بهذا الاعتذار ودعا لنفـسه وأحـسن لأخيه فاستعطف الله لهُ (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وهذا الحالُ من الاعتذار الجميل والصفحِ الجميل والإحسـانِ على المُخطئ هو أكملُ الأحوال التي ينبغي أن يكونَ عليها المسلمُ ، قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: لو أن رجلا شـتمني في أذني هـذه واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره، ومن الصالحين الذين سيق لنا خـبرُ اعتـذارهم في القـرآن صاحبُ موسى في سفرهِ يومَ تركَ الحوتَ الذي كانا يتزودان به فلما أردا أن يطعما منهُ قال موسـى لفتاهُ(آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) ، فبادرَ إلى الاعترافِ بالخطإِ والاعتذارِ منهُ وقَـالَ (

أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) ، وفي حديث القرآنِ إشارةٌ إلى أنَّ الاعتذارَ أدبٌ يوصلُ إلى أعلى مراقي الكمالِ إذا صدرَ من غير ذنبٍ وإنَّما لأجلِ إكرامِ المُخاطَبِ وإيناسه واحترامِ مشاعرهِ قال الله تعالى (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا) وهذا خطابٌ لمن يتقاسمونَ التركاتِ إذا حضر وقت قسمتها بعضُ قرابتهم المساكين أو بعضُ فقراء المسلمين ويتاماهم أن يجودوا لهم ببعضِ هذه التركات إن كانت فيها سعةٌ ويلاطفوهم بالاعتذار والقول الطيب والوعد الحسن ، والقولُ المعروفُ المتمثلُ في الاعتذار إلى أولئك الفقراءِ هو نافعٌ لهم وغيرُ ضارٍّ للمتكلم بهِ مع أنهم ليسوا أصحاب حقٍّ ومع ذلك أمر الله بالاعتذار والملاطفة جبراً لخواطرهم ، وليت بعضَ موظفينا ومسؤولينا يتمثلون هذا الأدبَ مع أصحاب الحقوق المراجعينَ فإذا عجز أحدهم عن خدمة المراجعِ تأدَّب واعتذر وهدى وأرشد ، وليتهُ إذا أبى قضاءَ المصالحِ لا ينهرُ ولا يكهر ويقول قولاً معروفاً ، فإن منعتهُ نفسهُ وشيطانهُ فليكفَّ لسانهُ عن الامتداد بالسوءِ فإن فعل فليبشرْ بعاجلِ المشقةِ في بدنهِ وعيالهِ ومعاشه ومعادهِ وسائر شؤونهِ ، كيف لا وقد دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم فاشقُق عليه) فطوبى لمن استدفع بطيِّب القول سخطَ الله ورسوله والمؤمنين.

وفي حديث القرآنِ عن الاعتذار إشارةٌ إلى أنَّ المعتذرينَ في الخفاء وقد أخطئوا علانيةً مُتَّهمونَ في اعتذارهم ذلك أنَّ إخوةَ يوسُفَ جاؤُوا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة ، وليس بعيداً من ذلك الحالِ من يرتكبُ الخطيئةَ على المنبرِ أو صفحاتِ الجرائد أو شاشاتِ الإعلامِ ثُمَّ إذا تبيَّن خطأهُ وإساءتهُ وليمَ عليها يعتذرُ خالياً وقد فاضت عيناهُ وقد لا يدفعُه إلى هذا التواري عن الأنظار إلا الجرأةُ على الاعتذار بالكذب.

إنَّ إكثار الزلل وتتابع الأخطاء مع اختلاق الأعذار أمرٌ يحطُّ قدر المرءِ ، ولذا قَالَ الْأَحْنَفُ : إيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ فَإِنَّهُ قَلَّمَا اعْتَذَرَ أَحَدٌ فَيَسْلَمُ مِنْ الْكَذِبِ ، وهذا ذنبٌ على ذنبٍ ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ وكم من عذرٍ يحتاجُ لأن يُعتذر منهُ ؟، ومن تأمَّل مذمَّة القرآنِ لهذا الخلقِ وجدَ أنَّ من أخصِّ سِماتِ وأوسمةِ المنافقينَ التي قلَّدهم إياها القرآنُ الاعتذارُ عن مواقفهم بالأيمان الفاجرة كما قال تعالى (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) فهم مطبوعونَ على الفجور والحنث العظيم ، يُغمسُ أحدهم في النَّار عشراً وعشرين وثلاثينَ في يومه وليلته بأيمان الغَموسِ هذه ، (سَمِجُ الجِبِلَّةِ بالمخازي مفرَطُ ** ويروغُ مثلَ أبي الحُصينِ ويلعَطُ) ، معبودهُ الذي يسترضيه هو الناسُ فإذا رضوا عنهُ فلا يبالي بآخرةٍ ولا جنةٍ ولا نارٍ (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ) ، ولكل قومٍ وارثٌ فليحذر الذين يُقسمون الأيمانَ المغلظةَ الفاجرةَ عند

الاعتذار من القبائحِ أن يكونوا خلفاً لأولئك الزنادقة المفضوحينَ ، وصدقَ عمرُ بنُ عبد العزيز يومَ قال في الكذب عند الاعتذار بعد الخطإ : (إنَّ خصلتينِ أنجاهُما الكذبُ لخصلتا سـوءٍ) ولـئن أدرك أولئك بغيتهم من رضى الناسِ فهيهاتَ لهم رضى الله (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

وفي حديث القرآنِ عن الاعتذار إشـارةٌ إلى أنَّ يومَ القيامةِ هو أعزُّ ما يكونُ فيهِ الاعتذارُ ولن يقبلَ يومئذٍ عذرٌ من أحدٍ كما قال تعالى (هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فبادر أيها الظـالمُ لنفسك وإخوتكَ وبنيك ومن استأمنكَ على أمرهِ فخُنتهُ ، فلا تزالُ في ساعة الإمهالِ والبابُ مفتوحٌ لك أيها لتعتذر إليهم وإلى الله من خطيئاتك وتستسمحهُم من سيئاتك ففي يوم القيامـةِ لا تَنْفَـعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ.

****

عباد الله: صفيةُ بنتُ حيي بن أخطب أمِّ المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها كانت من حظِّ رسول الله صلى الله عليه عند قَسمِ الغنائمِ ، تقول رضي الله عنها (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مـن أبغض الناس الي قتل زوجي وأبي وأخي فما زال يعتذر الي ويقول إنَّ أباكِ ألَّب عليَّ العربَ وفَعَـلَ وفَعَلَ حتى ذهب ذلك من نفسي) عليهِ أتمُّ أصنافِ التَّحـايا *** وأكملُ ما عليهِ بهِ يُـصَـلَّى.

عباد الله: إنَّ أصحابُ المروءاتِ يزدرون عطاياهم وهداياهم ولا يعدونها شيئاً بل يحسنون ويُهـدون ويعتذرون فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– فَدَخَلَ بِأَهْلِهِ – قَالَ – فَصَنَعَتْ أُمِّى أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْسًا فَجَعَلَتْهُ فِى تَوْرٍ فَقَالَتْ يَا أَنَسُ اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صـلى الله عليه وسلم– فَقُلْ بَعَثَتْ بِهَذَا إِلَيْكَ أُمِّى وَهْىَ تُقْرِئُكَ السَّلاَمَ وَتَقُولُ إِنَّ هَذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يَا رَسُـولَ اللَّهِ) فرضي الله عن أم سليم وأرضاها ما أكرمها وما أزكاها وما أبرها وما أتقاها، والمرءُ إذا طُلـبَ منهُ شيءٌ وكان لهُ عذرٌ مانعٌ فالسنة أن يبين عذرهُ لئلا يُساء به الظنُّ أو يجرحَ مشاعرَ الناسِ وخـيرُ أسوةٍ في ذلك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الصحيح عَنِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ اللَّيْثِيِّ أَنَّـهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حِمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالأَبْوَاءِ فَرَدَّهُ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى مَـا فِـي وَجْهِهِ من الأسفِ على ردَّ هديتهِ قَالَ إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلاَّ أَنَّا حُرُمٌ، وصحَّ عَنْ عَائِـشَةَ رضـي الله عنها أَنَّها قَالَتْ قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « نَاوِلِينِى الْخُمْرَةَ مِـنَ الْمَـسْجِدِ ». قَالَتْ فَقُلْتُ إِنِّى حَائِضٌ ، وهذه الجملةُ بمثابة الاعتذار عن طاعة الزوجِ فيما أمر بـه فَقَـالَ عليـه الصلاةُ والسلامُ مبينا جواز ذلك « إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِى يَـدِكِ » وفي الـسُّـنة الـصحيحةِ أنَّ الكلامَ فيما يُستحيى منهُ كأحكـامِ الفروجِ ومباشرة النساء ودمائهم ينبغي أن يُمهِّـد لهُ صـاحبهُ

بالاعتذار إكراماً للعلماءِ وتعظيماً لشريعة الله التي استودعها صدورهم ففي الصحيح أنَّ أمَّ سُـــليمٍ قالت يارسول الله " قَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ هَلْ عَلَـــى الْمَـــرْأَةِ غُـــسْلٌ إِذَا احْتَلَمَتْ قَالَ نَعَمْ إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ " ، (لقد ساءلت خيرَ الأنامِ فلم تزل *** لديهِ من العليـــاءِ تُبدي حيائها) ، وهذا يتعلمُ منهُ للمسلم أن يحسن الخطاب مع الخاصةِ من الفضلاء والعلماء وأنه لا ينبغي مخاطبة خاصة الناس وولاة الأمور وذوي الهيئات بما يُخاطب به العامة ، وقد يُخطئُ الإنسانُ في حقِّ بعضِ ولاة الأمور ومشاهير أهل الفضلِ وهو يجهلُ أعيانهم ولو عرفهم ما أساء إليهم والسنةُ عنـــد ذلك أن يعتذر إليهم كما جاء في الصحيح أنَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْـــرٍ فَقَالَ اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ لَمْ أَعْرِفْكَ فَقَـــالَ إِنَّمَـــا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى ، وقبول العذرِ قربةٌ وطاعةٌ لله وخلقٌ شريفٌ نبيلٌ

(إذا اعتذر الجاني محا العذرُ ذنبَـــه ** وكل امرئ لا يقبل العذرَ مذنبُ)

والعقلُ والحزمُ في أن يجتنب المرءُ ما يُحوِّجُـــهُ لأنْ يعتذرَ لمخلوقٍ كائناً من كـــانَ ، ولا يكونُ ذلك إلا بضبطِ النفسِ وحبسِ اللســـانِ والأنـــاةِ في الفعل ، قال ذا النون : ثلاثة من أعلام الكمال وزن الكلام قبل التفوه به ، ومجانبة ما يحوج إلى الاعتذار ، وترك إجابة السفيه حلما عنه.

عباد الله: إنَّهُ ليسَ أحدٌ أحبُّ إليه الاعتذار من ربكم تعالى وتقدَّس قال صلى الله عليه وسلم (وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ) أي اعتذار العباد إليه من تقصيرهم وتوبتهم من معاصيهم فيغفر لهم كما قال تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) ومـــن تأمَّل نصوص التوبة وشعب الإيمان والإسلام وجدها كُلَّـــها محتملةً هذا المعنى وهو التقـــربُ إلى الله والاعتذارُ إليه عن الزلل والجرائم فخابَ وخسرَ عبدٌ يعلمُ أنَّـــهُ توابٌ ويحبُّ التائبينَ وباسطٌ يـــدهُ ليلَ نهار للتوبة على عبادهِ ثم لا يتوبُ ولا يؤوبُ والمحرومُ من حرمه الله (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)